الفصل الثالث

المراهقة المتكيفة

(الشكل الأول)

السمات العامة للمراهقة :

• المراهقة فى هذا الشكل هادئة نسبياً ، وهى أميل إلى الاستقرار والاتزان العاطفى ، وتكاد تخلو من العنف والتوترات الانفعالية الحادة .

• علاقة المراهق بمن يحيطون به طيبة بصفة عامة ، ولا أثر لتمرد على الوالدين أو لثورة فى الأسرة .

• حياة المراهق غنية بمجالات الخبرة وبالاهتمامات العملية الواسعة التى يحقق عن طريقها ذاته . . وحياته المدرسية موفقة فى أغلب الأحيان .

• يشعر المراهق بمكانته فى مجتمعاته وبتوافقه فيها ، ويرضى عن نفسه عموماً .

• لا يسرف المراهق فى الخيالات وأحلام اليقظة أو غيرها من الاتجاهات السلبية ، ولا يكثر التهمم أو يطيل التفكير فى مشكلات ذاتية .

obeikandl.com

• لا تستولى المسائل الدينيـــة والفلسفية على تفكير المراهق إلا فى النادر . . وأما الشكوك الدينية وموجات التردد فلا تأخذ صورة حادة ، وقد لا يتعرض لها المراهق إطلاقاً .

• وبالاختصار ، فإن المراهقة تنحو نحو الاعتدال فى كل شىء ، ونحو الإشباع المتزن وتكامل الاتجاهات المختلفة .

العوامل المؤثرة فى المراهقة :

١ — تشترك هذه الحالات جميعاً فى المعاملة الأسرية المعقولة التى تنطوى على سماح الوالدين للمراهق بنصيب وافر من الحرية ، وعلى تفهم حاجات المراهق وإحترام رغباته . فأغلب الأسر كانت تشجع المراهق على دعوة أصدقائه إلى المنزل ، وبعضها كان يقصد إلى أن يوفر للمراهق جو الاختلاط بالجنس الآخر ، فيقيم الجلسات العائلية التى يشترك فيها الأقارب والمعارف من الجنسين . وكل الأسر تقريباً كانت تترك للمراهق حرية التصرف فى أموره الخاصة ، كاختيار ملابسه وأصدقائه ، واختصاصه بغرفة للنوم والدراسة يشرف بنفسه على تنظيمها ، واختيار هواياته ، واختيار دراسته أيضاً فى بعض الأحيان . . فلم تكن الأسرة تتدخل إلا فى الأمور الخطيرة التى تستوجب تدخلها ، وكان موقف الآباء فى هذه الأمر موقف الموجه الناصح الذى لا يحاول أن يفرض رأيه فرضاً على المراهق ، وقد شجع بعض الآباء أبناءهم على الاهتمام بالنواحى الترفيهية كالتردد على السينما التى صحبوا أبناءهم إليها فى بعض المرات .

وقد نجح آباء هؤلاء المراهقين فى توفير جو من الثقة بينهم وبين أبنائهم، بحيث تسنى للمراهق أن يصارح أباه فى بعض مشكلاته الإنفعالية، فيوجهه أبوه فى حدود إستطاعته .. ففى إحدى الحالات لاحظ الوالد على ابنه تأزما كان من مظاهره ضيقه بإخوته ورغبته فى الإختلاء بنفسه أغلب الوقت، فاستدرج الأب المراهق إلى حديث هادىء شكا الابن فيه إلى والده ما يلاقيه من ضيق وقلق بسبب مما رسته الحديثة للاستمناء، وكان موقف الوالد هادئاً خالياً من الانفعال فأفهم المراهق أن هذا الأمر ليس فيه شذوذ بل أن الشذوذ هو ألا يمر بهذه التجربة، ووجهه إلى الاستذكار مع أحد زملائه وإلى شغل فراغه وتفكيره بما يهيىء له التخفف من مشكلته . . وفى حالة أخرى أعان الوالد ابنه المراهق على التغلب على آثار خبرة مخيبة لآماله؛ فقد عن للمراهق أن ينشىء جمعية تعاونية عمادها أقارب الأسرة، وكان يحاول بذلك أن يجمع شمل العائلة حول غرض نافع، وأن يصيب كذلك نجاحا فى أمر لم يسبقه اليه أحد أفراد العائلة، فلما منيت محاولته بالفشل لاعتراض كبار رجال العائلة واستهزائهم بفكرته، شعر المراهق بخيبة الأمل وأحس بانه صدم فى كبريائه وكرامته، وقد تصرف الوالد مع ابنه تصرفا حكيما حيال هذه الأزمة حيث تناقش معه فى الأسباب التى أدت إلى فشل المشروع محاولا أن يهون من أثر الصدمة فى نفسه. ومن أمثلة التوجيه الحكيم أيضاً مافعلته إحدى الأمهات عندما لاحظت على ابنها شيئا من الشحوب والانشغال الذهنى، فقد هدتها حكمتها إلى أن تخلق لابنها هدفا هاماً

يتعلق به ويقضى به أوقات فراغه ، فوجهته إلى الالتحاق بمعهد للموسيقى حيث أقبل على تعلم العزف على (الكمان) ووجد فى هوايته الجديدة شغلا شاغلاً أضفى على حياته بهجة فى المراهقة وبعدها .

٢ — وتشترك جميع الحالات فى شعور المراهق الأكيد بتقدير أبويه (أو أيهما الذى على قيد الحياة) واعتزازهما به . وكثيراً ما كان لهذا التقدير من جانب الأبوين مبرر من شخصية المراهق نفسه ؛ كامتيازه فى الدراسة ، أو تمسكه بآداب الدين وإشتهاره بين المعارف بفضائله الخلقية ، أو إشتراكه فى ميدان من ميادين الخدمة الإجتماعية ، أو تفوقه فى نشاط فنى أو رياضى . وإلى جانب هذا ، كان لبعض المراهقين فى أسرهم وضع خاص عزز مكانتهم فى الأسرة ، مثل كون المراهق الذكر الوحيد أو أكبر الأبناء الذكور .

ومما نوحظ أن التقدير الذى صادفه هؤلاء المراهقين فى أسرهم قد اقترن بالتقدير فى مواطن أخرى ، مثل مجموعة الأقران أو الأصدقاء أو مجموعة المدرسين أو أهالى القرية (فى حالة المراهق القروى) . ولعل مرجع ذلك إلى أن مجتمعات المراهق المختلفة تحتفل به لبعض الأسباب المشتركة بينها (كامتيازه العقلى أو الرياضى) ، ولعل مرجعه أيضاً إلى التأثير المتبادل للتقدير فى الأسرة والتقدير فى المجتمعات الأخرى . فالأب الذى يعرف عن مكانة ابنه فى مدرسته أو بين أهالى قريته يزداد به اعتزازا وفخرا ، كما أن تقدير الأسرة يوطد أمن المراهق النفسى فيشجعه على المغامرة

الموثوق بها فى المجتمعات الخارجية ، والتى من نتائجها المحظوة فى هذه المجتمعات .

٣ — وقد كان المستوى الاقتصادى والاجتماعى للأسرة فى أغلب الحالات ميسورا أو فوق المتوسط ، مما أتاح توفير الحاجات المادية للمراهق بقدر معقول ومكن لظهوره بالمظهر المناسب بين أقرانه . وفى جميع الحالات كان المراهق يعتبر مصروفه الخاص مناسباً أو كافيا . وقد تهيأت لبعض المراهقين فى الأسر العالية المستوى فرص مميزة ، مثل قضاء الصيف مع أسرهم فى المصايف أو الاشتراك فى النوادى الراقية أو ممارسة هواية غالية الثمن كالموسيقى . كما كان للمركز المتميز لبعض الأسر الريفية أثر كبير على شعور المراهق بالتقدير بين أهل القرية .

٤ — واحتل النشاط الرياضى الاجتماعى مكانة خاصة فى حياة هؤلاء المراهقين — باستثناء حالات ثلاث — فكان دعامة أساسية فى جعل مراهقتهم سعيدة مشبعة . وأغلبهم كان يزاول هذا النشاط إلى جانب الدراسة ، فى النوادى الملحقة بالجمعيات الدينية . وبعضهم أحرز بطولات رياضية كانت مصدراً إضافيا من مصادر التقدير والمكانة بين الأقران .

٥ — وتميز عدد كبير من هؤلاء المراهقين بحسن التكوين الجسمى الذى دعا بعضهم إلى مفاخرة إخوانهم بقوتهم الجسمية وتحديهم لهم فى مظاهر الشجاعة ، وإلى الاهتمام بالأناقة وحسن الهندام والملابس التى تبرز محاسن أجسامهم .

٦ — وفيما عدا حالة تأخر دراسي واحدة ، كان المراهقون جميعاً في هذه المجموعة من الناجحين في دراستهم بل من المتفوقين فيها في أكثر الحالات ، وكان هذا النجاح الدراسي من مصادر رضى المراهق عن نفسه وتقدير الآخرين له . واقترن التفوق الدراسي في حالات كثيرة بميول عقلية واسعة وبالقراءات الخارجية ، سيما الشعر والكتابات الأدبية والدينية .

٧ — ومن عجب أن التدين الذي يعتبر عاملا معقداً في المشكلات الانفعالية لكثير من المراهقين كان — متى وجد في بعض حالات هذه المجموعة — عاملا مدعما لإحساس المراهق بالأمن والاستقرار ، مما يدل على أن تأثير هذا العامل يتوقف على الطريقة التي يتفاعل بها مع عوامل أخرى في حياة المراهق ، وعلى مدى ملاءمة ظروف المراهق وبيئاته لحاجات المراهقة . ففي حالات غير قليلة كان التدين مصدراً هاماً من مصادر رضى المراهق عن نفسه وإحساسه بأنه عضو نافع في المجتمع ، وخصوصاً إذا اصطبغ التدين بصبغة عملية مثل اشتراك المراهق في تقديم الخدمات الاجتماعية لفقراء الحي . كذلك قرر بعض المراهقين أنهم وجدوا في قراءة كتب الدين والتردد على بيوت العبادة راحة نفسية ونشوة روحية عجيبة ، جعلتهم يترسمون في حياتهم الاتجاهات المثالية ويحاولون تطبيق المبادىء التي تشبعوا بها . وقد ذكر أحد المراهقين أن تدينه الشديد كان باعثا على تقدير أهل القرية وأسرته وزملائه له . كما مكنته اتجاهاته الدينية ، إلى جانب تساميه عن طريق ضروب مختلفة من النشاط الرياضي والاجتماعي

والثقافى ، من عدم ممارسته الاستعناء على الاطلاق — وهو أمر نادر فى المراهقين . ولما علم إخوانه ذلك عنه ، زاد إعجابهم وتقديرهم له ، فكان هذا التقدير حافزاً آخر لمحافظته على ما أخذ به نفسه من امتناع .

٨ — وفى حياة كل من هؤلاء المراهقين قدر واف من المسئولية الاجتماعية ، سواء فى أسرهم أو فى مدارسهم أو فى النوادى التى كانوا أعضاء بها . ومن الأمثلة الواضحة لذلك أن بعض المراهقين كانوا يقومون فى النادى الدينى الاجتماعى بالإشراف على كرة الطاولة أو إلقاء الأحاديث الدينية أو القيام بخدمات اجتماعية لفقراء الحى . وأقام بعض المراهقين القرويين الحفلات الدينية والاجتماعية فى القرية ، وأسهم فيها بالخطابة ، أو اشترك فى حملة للنظافة أو إصلاح المسجد أو مقاومة طغيان العمدة المتسلط الخ . .

٩ — وأتيح لبعض هؤلاء المراهقين أن يعيش بعيداً عن أسرته لظروف الدراسة فتهيأت له بذلك فرص الحياة الاستقلالية وحرية التصرف والاعتماد على النفس والتخفف من رقابة الأسرة .

١٠ — وقد تأثرت المراهقة فى بعض الحالات بتأثير شخصية معينة — إلى جانب الأب أو الأم — مثل الدور الذى لعبته شخصية أحد الرواد الدينيين فى تغلب أحد المراهقين على سموباته الانفعالية ، ومثل تأثر مراهق آخر بتوجيه أخيه الأكبر الذى سبقه إلى البلوغ بزمن وجيز وأشركه معه فى زمرة أصدقائه ، كما عاونه على مقاومة صدمة عاطفية عنيفة .

١١ — وبالرغم من أن مخالطة الفتيات كانت من عوامل الإشباع وهدوء المراهقة فى حالة بعض المراهقين ، فإنه يبدو أن كثيرين قد توصلوا إلى أن يتساموا تساميًا كليا أو جزئيا بالنواحى الجنسية ، وأن ينصرفوا بطاقتهم إلى الرياضة والثقافة الأدبية أو الدينية .

أمثلة من الحارث :

١ — هذه حالة مراهق قروى ، ينتمى إلى أسرة ميسورة الحال . ولهذا المراهق أخ غير شقيق أكبر منه . وكان هذا الأخ الأكبر مزارعاً أمياً ، بينما التحق المراهق بالمدارس فالجامعة ، مما أثر فى نظرته إلى نفسه وأشعره بمكانة خاصة فى الأسرة . . وقد سمحت الأسرة للمراهق بدعوة أصدقائه للمنزل ، وهو يقول فى ذلك : « كنت أجد فى هذا ارتياحاً كبيراً وخاصة أن بعض زملائى كانوا يحجبون من هذا العمل خشية والديهم » . كذلك عهد الوالد إلى المراهق بتصريف بعض شئون الأسرة نيابة عنه ، وذلك فى أثناء العطلات المدرسية التى كان يمضيها بالقرية . . . وكما وثق الأب فى ابنه ، وثق الابن فى أبيه وسكن إليه ، فكان يصارحه ببعض صعوباته (مثل شعوره بالقلق نحو تأخره فى النمو الجسمى) ولقى من أبيه فى ذلك حسن الاستماع والنصيحة المطمئنة .

وقد أقام المراهق — فى أثناء السنة المدرسية — فى المدينة حيث المدرسة الثانوية ، فكان يقوم مع زملائه فى المسكن بإعداد طعامه وترتيب غرفته وفراشه

وتدبير سائر أموره ، مما هيأ له لوناً من الحياة الاستقلالية والإحساس بالمسئولية الفردية . . وقد ساعده على المعيشة الراضية ما كان يتلقاه من مصروف شهري مناسب .

ونظراً لأنه كان من بين المتفوقين فى الشهادة الابتدائية ، التحق بالمدرسة الثانوية الأميرية بالمجان . وبذلك لم يحس — إحساس بعض المراهقين — بالتطفل الاقتصادى على الأسرة ، وعلى العكس من ذلك كان أهل قريته يمتدحونه لأنه يدخر لوالده سنوياً مبلغ ٢٢ جنيهاً ، هى مصروفات الدراسة بالمدارس الثانوية الأميرية إذ ذاك .

وقد شعر المراهق بتقدير خاص من المعارف والتلاميذ والمدرسين بسبب تفوقه الدراسى بالمدرسة ، حيث كان ترتيبه بين الأول والثالث فى فصله . وعزز مكانته بين أهل القرية أنه كان أحد أبنائها الثلاثة الذين لم يلتحق أحد غيرهم بالتعليم الثانوى . وهو يقول عن معاملة أهل قريته له : « كنت أجد منهم إقبالاً واستماعاً حين أعود لأمضى يوم الجمعة بالقرية وكان الرجل مهما كبرت سنه ، يلقبنى (بالأفندى) ويقف للسلام على . وكان مجلس أبى يطرى على ويمتدحنى دائماً . . » وكان يلقى الخطب الدينية أحياناً فى مسجد القرية — يعاونه فى إعدادها عمه المتخرج فى الأزهر — فرفع ذلك من شأنه بين القرويين الذين جمع فى نظرهم بين الخلق والعلم .

أما عطلات المراهق بالقرية ، فكان يقضيها بطريقة مشبعة منتجة . . فهو أحياناً يقوم بحرث الأرض مع والده ويجد فى إتقانه للعمل الزراعى

إلى جانب نجاحه الدراسي مبعثاً لاعتزازه ورضائه عن نفسه . وأحياناً يعاون بعض أقاربه من تلاميذ المدرسة الأولية فى تفهم دروسهم . وكان يقرأ الكتب الأدبية وأعجب من بينها بكتابات « المنفلوطى » ، واشترك كذلك مع أقران القرية فى فريق لكرة القدم ، كان يتقابل عدة أيام فى الأسبوع ويتبارى أحياناً مع فرق القرى المجاورة . كما أتيح له أيضاً أن يتزاور مع فتيات من قريباته المتعلمات ممن اعتدن قضاء الصيف بالقرية ، فتهيأ له بذلك لون من ألوان الإشباع العاطفى .

واعترضت حياة المراهق بعض الصعوبات ؛ من بينها تأخره فى البلوغ حتى الخامسة عشرة وتخلفه فى بعض مظاهر النمو الجسمى ، وما تبع ذلك من تعليق المعارف والأقرباء .. على أن المعاملة الكريمة للمراهق فى الأسرة والتقدير الخاص الذى حظى به من أهل القرية ومدرسيه ، وشعوره بامتيازه العقلى وتنوع قدراته — كانت كلها من العوامل الملطفة التى هوّنت عليه صعوبته الانفعالية .

كذلك عانى المراهق فى مبدأ إقامته بالمدينة أزمة نفسية عارضة ، نتيجة افتقاده ما تعود من اختصاصه بالتقدير فى حياته بالقرية ، ونتيجة إحساسه بالنقص لمظهره الريفى ولتخلفه فى النمو الجسمى . واتجهت به هذه الأزمة حيناً من الدهر ، إلى التفلسف فى الدين وإلى الجدل الذى ينحو إلى المخالفة كوسيلة للظهور والاشتهار . . على أن هذه الفترة لم تدم طويلا ، فسرعان ما ألف المراهق الأوضاع الجديدة بالمدينة وتكيف معها ، كما وجد شيئاً

من التعويض عن تخلفه فى المظهر فى أن زميل دراسة جميل الهندام كان يقصده — كما يقول — ليستوضحه بعض نقط الدروس ، مما أشعره بالتفوق عليه رغم مظهره .

والخلاصة أن المراهقة فى هذه الحالة هادئة نسبياً وأميل إلى الاستقرار والاتزان الانفعالى . وقد أسهمت فى هدوئها عدة عوامل : من بينها ذكاء المراهق وامتيازه العقلى ، والتقدير الاجتماعى المترتب على مركزه كشخص متعلم فى التربية ، وعلى إعجاب الأقران والمدرسين بتفوقه الدراسى ، والمعاملة المسمحة والتقدير فى الأسرة وصداقة الأب للمراهق ، وحياة المسئولية والاستقلال التى عاشها المراهق فى المدينة فى أثناء السنة الدراسية ، وكذلك الفراغ المشبع المنتج فى العطلات التى قضاها بالقرية .

— ٢ — وهذه حالة ثانية من حالات المراهقة جمعت بين مقومات الأمن النفسى : من بيت فاهم حكيم عنى بحاجات المراهق وأعانه على مواجهة صعوباته ، إلى جسم رياضى نام وعقل نام ، إلى تقدير موفور من جانب الأقران والكبار والجنس الآخر .

والمراهق من أبناء المدينة ، ينتمى إلى أسرة ميسورة فى العيش ومتقدمة فى أساليب التربية . وقد عنيت الأسرة بنمو المراهق فى نواح وأبعاد شتى ؛ فاهتمت بغذائه الصحى ، وشجعته على اتجاهاته الرياضية وعلى عنايته بتنمية جسمه ، ومنحته المصروف السخى ، وشجعته أيضاً على اتخاذ الأصدقاء والاجتماع بهم بالمنزل وخارجه ، كما تابعت نموه الدراسى باليقظة والاهتمام دون التدخل المباشر .

وكان والد المراهق على شيء من الوعي التربوي التقدمي ، فمكنه ذلك من توجيه ولده في بعض صعوباته الانفعالية — ومن ذلك مناقشة المراهق في الصعوبة التي قابلته بسبب ممارسة الاستمناء ، حيث شرح له بأسلوب هادىء انتفاء وجه الشذوذ في ذلك ، ووجهه إلى الاستذكار مع زميل له ، وإلى شغل فراغه وتفكيره بما يهيىء له التخفف من هذه الصعوبة .

ومما دعم رضا المراهق عن نفسه ، أنه كان صاحب جسم رياضي بديع التكوين ، فتن به فارتدى الملابس والقمصان التي تبرز محاسنه ، وعنى عناية خاصة باختيار أحدث الأزياء . وقد ساعدته في ذلك إمكانيات أسرته المادية ومستواها الثقافي الاجتماعي .

وكان المراهق بارزاً في فريق كرة القدم بالمدرسة ، فاستحوذ على تقدير ناظرها ومدرسيها وزملائه له ، وحصل على عدد من الجوائز ومداليات التفوق الرياضية . . كما كان عضواً هاماً في تنظيم الرحلات والحفلات التي تقيمها المدرسة . وقد أتاحت له اتجاهاته الرياضية الاجتماعية — بالإضافة إلى حسن تكوينه الجسمي ووجاهة منظره — أن يحرز إعجاب الجنس الآخر . فاتجه إلى تكوين صداقات مع بعض أفراده كان لها أثرها في اتزانه الانفعالي وتحقيق ذاته .

كذلك كان المراهق ذكياً نابهاً في دراسته ، ينجح فيها دائماً مع الاستذكار القليل . . وقد ظهر ميله إلى مصادقة من هم أكبر منه سناً من الأقران والزملاء ، بدافع من امتيازه في مستوى النضج الجسمي والعقلي .

٣ — ثم هذه حالة مراهق قادر طموح ، واسع الميول والاهتمامات التى تفوق فيها جميعاً ، وواسع الاطلاع والثقافة . تفوق فى دراسته الثانوية والجامعية ، وكان رياضياً ممتازاً وشخصية مدرسية معروفة — كرياضى وممثل وخطيب وشاعر . واتجه أيضاً إلى الموسيقى والرسم فشغل بهما جانباً كبيراً من فراغه ، واتخذ له أصدقاء يشاركونه هذه الاتجاهات . . . وكان لهذا النشاط المتعدد الأبعاد أثره فى أن تصبح مراهقته أميل إلى الإشباع والتوافق .

وكان هذا المراهق الثانى فى الترتيب بين سبعة من الأخوة والأخوات ، ولكنه لقى حظوة خاصة فى الأسرة لأنه أكبر الذكور .

وكان من أوائل فصله فى المدرسة الثانوية ، وحصل كذلك على تقدير « امتياز » فى سنوات الجامعة . وهو يتمتع باستعداد عقلى ممتاز ، كان من مظاهره فى المدرسة أنه كان خطيبها وشاعرها الأول فى الحفلات المدرسية ، فلجأ إليه زملاء له يستكتبونه أبياتاً من الشعر لاستخدامها فى مراسلاتهم وفى أغراض مختلفة . . . كذلك برع فى التمثيل حتى نال جائزة وزارة (المعارف) للمسابقات التمثيلية . ومن الأدوار التى شغف بها وقام بتمثيلها فى بعض حفلات المدرسة دور « ماكبث » ودور « عطيل » .

وكان شديد النهم فى قراءة كتب الأدب والشعر والقصة ، فثقف نفسه فيها ثقافة واسعة . وقرأ — بادئاً بالسنة التوجيهية — لكثيرين من أعلام الأدب الروسى والانجليزى والألمانى ، أمثال تولستوى وجوركى . . وبيرون وملتن وشكسبير . . وجوته وغيرهم .

وإلى جانب هذه الميول العقلية ، كان المراهق رياضياً ممتازاً مثل مدرسته فى مباريات المصارعة وألعاب القوى ، وكان أحد أبطال المدرسة البارزين . . وشغف كذلك بالموسيقى الغربية وبمعارض الفنون الجميلة واتصل ببعض الفنانين وشعراء الشباب !

وقد ملأت هذه الاتجاهات — الفكرية الفنية الرياضية — حياته ، فنحت بمراهقته نحو الإشباع والهدوء والاتزان الانفعالى ، وصرفته كثيراً عن التفكير الجنسى والانشغال بمشكلات ذاتية .